سؤال الأدب

منور بوبكر(1)

يحظى التفكير العلمي الموضوع في تأمل الإشكاليات التي نروم معالجتها في مناخ لا تشوبه أي وصاية، كي نتمكن من النظر في الأفكار التي تغمرنا بشكل تسلسلي، تُرتَّب أهميتها حسب أولويتها في خدمة الموضوع، لأن المعطى الفكري كما أثبتته الممارسة الحرة المنفتحة يتيح نسج الظروف الملائمة لتناول الظاهرة المستهدفة. وأول إشكال ينبغي تحديده، معرفة خصوصيات الأدب، المجال الذي نتحرك فيه، ونشتغل وفق معاييره.

لأن معرفة هذه المعايير/ المقومات، هي أولى الخطوات التي تفضي إلى ما نتطلع إليه، إذ الأدب بطبيعته يروم الانعتاق من أي قيد، لأنه تعبير حر، ورؤية للعالم(3) متغيرة بدورها ومتحولة، لها مذاهبها، وأفكارها، وتوجهاتها، كما تمثلها تجارب الحياة، لذا تتسم متونه بالانفتاح والمواكبة، لتكون الرؤية كذلك منفتحة ومتوسلة بمختلف المعارف، كما يمثله فهم المبادئ الأولى لمجالات الحياة الإنسانية، التي يعبر عنها أدبيا وإبداعيا.

هكذا يحيل الاشتغال على الشكل والمضمون في الأدب، إلى تنويع المرجعيات النظرية التي تستجيب لهذين الاعتبارين، فيعني الشكل الصياغة، وأهمية الأسلوب، مراعاة لما ينبغي أن يتوفر فيهما. ثم المضمون المتسم بالشمولية التي تترجم أفكار الذات، وتمد جسور التواصل مع الغير. كما تحض عليه ثقافة الاعتراف، اعتبارا لوظيفة الأدب بمعزل

عن إصدار أحكام قيمة عقيمة، إذ الكتابة في عمقها تتناول الظواهر بشكل محايد دونما تعصب.

إننا إزاء طاقات الألفاظ، ومهارات نظمها وضمها، ما يجعل أفق الدلالة مشرعا على جملة من القراءات، وهذا يرتبط بمدركات المتلقي ومستوياته التأويلية، إذ يبدأ تعدد النص كما أكد بارت في مقدمة دراسته لقصة الكاتب الفرنسي بلزاك، من قارئه، ومن التعدد الذي يسكنه(4)، الذي يمنحنا البدائل الممكنة لتأثيث معالم المعيش اليومي.

سؤال الأدب:

بعد هذا التمهيد التحديد هل يجوز لنا الادعاء بتراجع الأدب؟ وهل فعلا يمكن أن يتوانى عن أدواره الطلائعية في الحياة؟ وحتى وإن ترجحت لدينا فرضية التراجع، ما هي المعايير العلمية، والمجهودات المطلوبة التي يمكن أن تعيد له حيويته، وأدواره الرفيعة؟ بعد أن تم اختزاله في معارف مبتسرة، وفي خطاطات صارمة.

ولأننا في مجال الأدب بكل ما يمثله من تطلع وطموح، هل يتعلق الأمر بتجديد رؤيتنا له؟ وقراءته في ضوء استراتيجيات ناجزة تساير الحياة المعاصرة، أم نحن في حاجة إلى نقد ذاتي يحيل إلى نظام التفاهة الذي أصبح طابعا لحياتنا اليومية، وإفرازا للغزو التقني الذي أوصلتنا إليه التكنولوجيا بصيحاتها المختلفة، وموجاتها المتوالية التي تحمل كل واحدة منها إغراءاتها الخاصة بها، والتي للأسف الشديد انجرفنا مع معالمها السطحية دونما استفادة من البحث في أعماقها، وفي منطق تشكلها وتطورها، لأن الاهتمام بالبرمجة شأن له أسسه العلمية التي يتطلبها العصر، أما البرامج التي تنتجها البرمجيات وتقدمها في أجهزة متطورة بلغت شأوا في إغرائها فهذا شأن آخر، أبعدنا عن أهم القيم القادرة عن منحنا أمل اكتشاف آليات التطور، وإثارة الأسئلة الإشكالية التي تعيد لنا الثقة في أنفسنا، وهذا

مناط تجاوز الاحباطات العلمية التي تترصد مصير الأتراب(5)، ما لم يتملكا هاجس العلم والمعرفة، وتنويع محاور القراءة. فالفعل المتنامي للذة القراءة هو المقابل الموضوعي لتصورنا للحياة، ماذا نفعل فيها؟ أو ماذا نريد منها؟ وهل يمكن اعتبار الحديث عن الكتب، والانشغال بقضاياها مهنة(6)؟ سيما وأن:" الأدب لا ينشأ في الفراغ، بل في حضن مجموع من الخطابات الحية"(7)، تلك الخطابات الفكرية والعلمية التي تمثل المشتل الطبيعي لإنتاج نظريات أدبية، تتوج بدورها الظاهرة الأدبية لتحقيق التراكم الذي يفرز التصورات المتعلقة بالقضايا الأساسية التي تعتبر رافعة للمجتمع، بل ومحركا للحياة برمتها. لذا حينما تنعدم البنى الفكرية فإننا نفتقد القدرة على تمحص الذات، وإنتاج خطاب له رمزيته في تحقيق التوازن المنشود الذي يطمح إليه الإنسان في وسطه الاجتماعي، فالمسألة ترتبط باختياراتنا اليومية، إذ كلما أصدرنا نمطا من الأسئلة فإن التفاعل الواقعي معها، يشي بالميل إلى هذا الاتجاه أو ذاك، لأن كل اختيار هو في حقيقته ترجمة لاقتناعات ذاتية تمثل جوهر الشخصية الإنسانية، فتبقى المظان الفكرية وحدها كفيلة بإعادة الوهج لجملة من الاعتبارات الجوهرية التي توارت أو كادت، ولم تعد تملك الجاذبية التي تؤهلها للتفاعل مرة أخرى مع مجريات الحياة، ما يجعل الأدب باعتباره واحدا منها يتوارى ويحجم عن أدواره التي خلق لأجلها، والمتمثلة بالأساس في الاهتمام بالإنسان، وتناول قضاياه برؤية حثيثة ترفع فاعليته في الحياة، وتجعل الوسط الذي يتحرك فيه فضاء للتلاقي والتلاحق، وكوة ينبلج منها نور الأمل، لأن الأدب:" يستطيع أن يمد لنا اليد حين نكون في أعماق الاكتئاب"(8)، ويجعلنا نفهم العالم بشكل أفضل، لأنه يحيلنا أولا إلى فهم ذواتنا، ويوحي لنا من ثم، بحقيقته السرمدية بأنه عين منفتحة على الكون، لذا من المعيب أن نقلم أدواره، ونقصرها

على أمور شكلية تعج بالذاتية والأنانية. فالأفق الذي يندرج فيه العمل الأدبي، هو حقيقة الكشف المشتركة(9) التي تستوعب العالم.

قارئ الأدب:

ونحن في تخوم المجال الأدبي الذي ظل:" يجترح الإشكاليات النظرية، والمآزق المنهجية باستمرار"(10)، نتساءل عن المواصفات التي ينبغي توفرها في قارئ الأدب؟ من هو؟ وما هي خصوصياته؟ وبتعبير إيكو من هو القارئ النموذجي؟ وهل يمتاز بقدرات فائقة تفضي به إلى تناول النصوص باستراتيجيات ناجزة أكثر من غيره؟

تلك أبرز الأسئلة التي أثارتها نظرية التلقي، باعتبار منعطفاتها التي جددت معايير المعطى الأدبي، إذ رسمت بدائل كانت لها الجدوى في تغيير مسار الأدب، فدمجته في سيرورة التاريخ وأعطته بعدا ثقافيا يتنامى مع انصرام الوقت، بتطعيم آفاق المتلقي وتحويلها وفق المعطيات المؤثرة فيها، لتستفيد من أبرز التغيرات الفنية والمضمونية المقرونة بالنص الأدبي، تطلعا إلى تجديد آليات اشتغاله وجعله حيويا تتجدد شروط قراءته باستمرار، وهذا في حد ذاته انفلات من المحددات التي تحكمت في جوهره ردحا من الزمن، وكذلك مسايرة لظواهره المكنونة واستكشاف لها، وفق رؤى القراء المتعاقبة التي تضخ فيه دماء متجددةً، باستثمار وقائع الماضي وقراءتها وفق مقاربات مغايرة.

إنه الرهان على تنشيط ذاكرة النص، لأبعادها الرمزية التي تتطلع إلى قارئ يبذل جهده، ويستحضر لحظات الكتابة ليضيف إليها لمساته، بقدرته على مساءلة الدلالات الثاوية في أقاصي النص، لأن لهذا الأخير حيله التعبيرية التي تتعالى عن السطحي بما تمثله التجليات اللسانية، لكونه نسيج ما لا يقال(11)، لذلك يتطلب التفعيل لتجاوز الواضح والسطحي، باعتباره:" آلية كسولة ـمقتصدةـ تحيا من قيمة المعنى الزائدة التي يكون المتلقي

قد أدخلها"(12) لرأب تصدعاته وملئ بياضاته، بفاعلية التأويل التي تحيل على نشاط القارئ ودوره في اصطناع استراتيجيات حاسمة تتباين من واحد لآخر، قد تفضي في نهاية المطاف إلى قارئ نموذجي(13) نأمل جميعا مع المؤلف وجوده، لأنه يتأول النص وفق انتظارات صانعة للمتعة، إذ:" داخل مقولة القراءة تلك تعمل اللذة لا كنواة، ولكن كقوة"(14)، تروم خلق مقصديات جديدة ما كانت لتظهر لولا فعل القراءة، بقوة تأملها، وتفتيتها نوى النص، إلى فرضيات دلالية تؤشر كل واحدة منها على نمط معين من القراءة، تتوافق بشكل ما مع مقصديات المؤلف، والنص، والقارئ، وتحدد سيرورتها الدلالية التي تقود إلى نمط مرجعي يؤول إليه المعنى وفق الأقطاب الثلاثة السالفة.

طبقا لهذه العوامل، يتم تحويل الواقع بواسطة اللغة إلى حقيقة عليا، استكناهً لذواتنا كي تصير مكنوناتنا العميقة فضاءً للعلامة في أبرز تحولاتها، هكذا يتم تأويل الواقع وفق مقاربات مختلفة، وقراءات متعددة، فلأنه صلب ولا يكشف عن ذاته، فقد تم اختراقه حسب تعبير ريكور(15) بفضل اللغة الشعرية والاستعارية باعتبارهما مكانا يتم الكشف فيه عن أعماق الواقع، إذ تتم معالجته وفق قضية الوعي والإرادة، وثمة أهمية التأويلات المتنافسة.

فالطاقة الرمزية التي تحظى بها النصوص الأدبية، تجعلها تتحرر من النطاق الوظيفي المباشرة للغة، وتتحلل من بُعدها المحسوس المحدود، لصالح بدلية الخيال وقدرتها على تجاوز ربقة الظاهر والسطحي، باستجلاء مدارات أخرى للمعنى، يدركها قارئ عقدَ العزم على النفاذ إلى النصوص للاستمتاع بالكامن فيها، سيما بتوجهها المزدوج، إذ يقدم واحد منها الدليل على عوالم النص بطبيعتها الغنية، أما الثاني فيمنح التجربة خلاصات تختلف في نهاياتها بالأساس عن بداياتها، ما تستحيل معه الرهبة إلى رغبة لاستغوار دلالاتها، فالأمر

رغم عَنَته لا يخلو من متعة تجعل القارئ مصمما على اختيار يفيض لذة ومنفعة، ويقدم خدمات للنصوص أثناء تداولها ومقاربات، ما كان المؤلف(16) شخصيا أن يقدر عليها.

إذن، مع صنف من هذا النوع، تتبدد المخاوف، ويصير الأدب إلى أمن، بمنأى عن أي خطر، لأنه قارئ تراكمي يؤمن بالاستمرار بدل الانقطاع، بعيدا عن متاهات العصر وإغراءاته، قضيته الأولى البحث عن المشترك الإنساني، وهذه مسألة على قدر من الأهمية، لأنها تبحث عن آليات تواصل ناجعة، إنه التواصل المستمر غير المرتبط بمرحلة معينة، أو بإكراه من الإكراهات، تواصل بين الأفراد في مناطق شاسعة، وبين الحضارات السالفة واللاحقة، رهان من هذا العيار لا تضمنه إلا النصوص، بمختلف ألوانها وأنواعها، ولأننا في سياق الأدب فإن نصوصه تتميز عن غيرها، بتباين مكنوناتها الظاهرة والمضمرة، والكامنة والمعلنة، لذا فهي تحتاج إلى نشاط فكري من نوع خاص، يفضي إلى تجاوز الأزمات التي تتمظهر أحيانا في ظواهر شكلية وسطحية، وحقيقتها أنها ذات غور، وتعدد، وانفتاح، بقدرتها التواصلية دون حساب لدوائر الزمن والمكان.

فعلا، الأمر يتطلب مجهودا، لكن نتائجه تهون ذلك وتشجع على البذل، للاعتبارات المذكورة، أو المتروكة. وهذا اقتناع كان منذ القديم، إذ أثاره القدامى الذين مارسوا الكتابة، وخاضوا غمارها، فأوصوا بالصبر في طلب العلم، وهذا فيه ما فيه من مجاهدة النفس، ومغالبتها للإخلاص فيه والتحلي بشروطه.

فاعلية الأدب:

لا نبالغ إذا اعتبرنا الأدب هو المقابل الموضوعي للواقع، إنه صيغة عليا للخلق والإبداع، ينسج عوالمه الخاصة به، والتي وإن بدت مستقلة عن الواقع، إلا أنها تنضح بقوة الإشارة بالكثير من العلامات التي تعيد ترتيبه، أو على الأقل تحاول خلق بدائل له،

لذا استطاع الأدب أن يأسر القارئ ويوجه طاقاته للتفاعل مع عوالمه، ليغدو فعل القراءة مزوِّدا أساسيا للتجربة الإنسانية باشتغاله وفق نمط حركي لا يتوقف، بل تزداد حركيته بمرور الوقت وتلاحق الأجيال، لأنه يصيب مناطق الإحساس وهي أشد المناطق وعيا في شخصية الإنسان، إذ كل واحد منا يجد فيه عزفا معينا على أوتار مشاعره الداخلية، التي تحرك مفاعلاته الفكرية والوجدانية، بالانتماء إلى المشترك الشعوري الإنساني، ومن ثمة تتحسن بوادر تعامله مع الآخر، بالوصول بعفوية تامة إلى التماهي مع الهواجس التي يستشعرها، والتي ما كانت لتتبدد بدون التسلح بالوعي الذي تمنحه التجربة الأدبية، وما نقصده هو:" كيفية الاستفادة من الرؤية الفلسفية النفسية الحديثة التي تنظر إلى النفس كوعاء يختزن مواد أولية"(17) يساعدنا الأدب على تمييز أنواعها وأخذ فكرة عنها، تمنحنا جواز سفر صالح لمناولة الإنسان أهم آلية تُيسر سفره الإنساني.

هكذا يرتبط الأدب بالمجتمع لتفرز علاقتهما نوعا من التوازن بينهما، إذ يجد الأدب فيه مادته التي يشكلها ألوانا إبداعية وفنية، كما أن المجتمع يتأثر بالأعمال الأدبية بالقدر الذي يسمح فيه لعاداته أن تنحو في اتجاهات أخرى ربما غير مألوفة، بفتح زوايا مغايرة من الممارسة ما كانت لتكون لولا التوجيه الأدبي، بسحره الناس فرادى وزرافات، كفاعلية تواصلية تتضاعف بآليات إقناعها المضمونية، والفنية، والجمالية، والتي بفضلها يستطيع القارئ تحمل أوزار الحياة، ومناكفة أحداث الواقع الطافحة بالسوداوية، وقتامة المعيش اليومي.

ليبقى الأدب كما كان، منبع القيم الإنسانية التي لا محيد للمرء عنها، والتي بفضلها يفهم واقعه أفضل، ويتحرك فيه بإيجابية، بالتفكير في المصلحة العامة التي تتيح للجميع على

قدر من المساواة العيش بسلام واكتفاء، وهي رؤية الإنسان في الحياة التي لولاها لتعذر عليه تشييد صروحه الحضارية التي اعتد بها على مر الأزمان.

وفي معرض تقديم مثال بسيط، يشي بقدرة الأدب على بلورة الكثير من السجايا والخصال، وتقديم الشواهد والاعتبارات، يجنح فيودور دوستويفسكي إلى رؤية فلسفية تتأمل الذات الإنسانية، لتقديم انطباعات غير متاحة للجميع، نفهم عبرها أسرار الشخصية حسب أفعالها وانتماءاتها، لتغدو شخصية أليكسي إيفانوفيتش مسوغا لتصوير نمطية العلاقات بين الطبقات الاجتماعية، ومعرفة الكثير من صفاتها وأسرارها:" إن أفضل ما يمكن أن تقوم به إظهارا لهذا الاحتقار هو أن تتيح لي أن أحدثها عن حبي حديثا حرا طليقا، فكأنها تقول، إنني أحتقر عواطفك ولا أكترث أبدا لكل ما تقوله، وتعبر لي عنه من عواطف"(18)، بل تتجاوزها إلى صفات الشعوب وخصائصهم، فلا تنير الرواية حياة المقامر، بتسليط الضوء على جوانبه النفسية فقط، بل تتعداها إلى صفات الشعوب، بكشف أهم مميزاتهم:" على أساس أن ملكة تكدس الأموال قد دخلت خلال التاريخ، في سجل فضائل الإنسان الغربي المتمدن"(19).

ولا نتحدث هنا عن المتعة التي يقدمها بجمالياته التي تتيحها تقنيات اشتغاله الكثيرة والمتنوعة، بالقدر الذي نتحدث فيه عن قدرته على تغيير مواقفنا من الحياة، لاهتمامه بالتفاصيل التي نترفع عنها أحيانا، ولا نأبه لها، بيد أنه يلفت نظرنا إليها وإلى جزئياتها حيث يكمن بعض الشغب العميق الذي نفتقده، والذي يفضي بنا إلى تجويد ممارستنا اليومية في الحياة، والانتقال بها من قوة فاعلية المفهوم المجرد، إلى واقعية التجسيد الملموس، حتى ننعم بتجلياتها الإيجابية في ذواتنا، وعند الآخر. وبالتالي فالأدب هو الأنا الحقيقي الذي يتجلى أمامنا، وكأنه يمكننا من تأمل ذواتنا على حين غرة بصدق وواقعية، ما يجعل انثيالات

التغيير تتسرب إلينا، حتى نتحول إلى درجة أخرى تطبع معيشنا اليومي، وهذه إضافة نوعية باعتبارها لبنةً من الجمال تغني حياتنا بالكثير من القيم التي كنا نفتقدها، والتي تنجلي معها الهواجس والمخاوف، لأن المشاعر حينما تصل إلى مستوى من الرقي تحيل الحياة الاجتماعية إلى طاقة تنويرية يستفيد الجميع من إيجابياتها، هكذا حينما نقرأ الأدب، فنحن نتلى الأثر الإنساني بصيغة عليا تجعلنا نعتز بالانتماء إلى الجنس البشري.

1-أستاذ بكلية الآداب، الرباط.

2-ما الأدب، جان بول سارتر، ت: محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، 1948.

3- le dieu caché; Etude sur la vision tragique dans les pensées de Pascal et dans le théâtre de Racine; Lucien Goldman; Gallimard; P: 97.

4-النص المتعدد، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1/ 2020، ص: 9. بتصرف منه.

5-كما صيغت بشكل من الأشكال في كتاب: الأدب في خطر، تزفطان تودوروف، ت: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1/ 2007، ص:5.

6-الأدب في خطر: تزفطان تودوروف، مرجع سابق، ص:6.

7-الأدب في خطر، ص: 9.

8-الأدب في خطر، تيزفيطان تودوروف، ص: 45.

9-الأدب في خطر، تيزفيطان تودوروف، ص: 49.

10-تجديد درس الأدب: أحمد فرشوخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، ط1/ 2005، ص: 17.

11-القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، أمبرتو إيكو، ت: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1/ 1996، ص:62.

12-القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ص: 63.

13-القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، ص: 69.

14-لذة النص، رولان بارط، ت: فؤاد صفا والحسين سبحان، المعرفة الأدبية، دار توبقال،، ط1/ 1988، ص: 6.

15-صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، بول ريكور، ت: منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1/ 2005، ص: 16 و 28.

16-المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية: العروي، كيليطو، الفاسي، الجابري، جمعية البحث في الآداب والعلوم الإنسانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3/ 2001، ص: 23.

17-تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة، محمود غنايم، دار الجيل، بيروت، دار الهدى، القاهرة، ط2/ 1993، ص: 18.

18-المقامر، دوستويفسكي، ت: فارس غصوب، دار الفارابي، بيروت، ط1/ 2017، ص: 27.

19-المقامر، دوستويفسكي، ص: 36.

******

صدر حديثا